كيف أصبحت كاتبا ؟

سنوات التكوين

3-3

يرويها / محمد عمر بحاح

مامن قصة كتبتها ،الإوكان لها أصل في الواقع ،وقد يكون ذلك الأصل محدوداً

ذات قرن ، ذات بحر ، عندما حملت القوافل الحضرمية ، إلى كل الجهات، كل القارات ، صرت أنا نسل ذلك الحضرمي نتاج ثقافتين متجاورتين ثقافة يمنية عربية ، وثقافة أفريقية عربية ، ونتاج كل الثقافات .
فقد ولدت ذات مساء ، في قرية على الساحل الأفريقي ، تدحرجت من البحر " اللازوردي " تسمى " حيس في عام شهد مجاعة شديدة ، إلى درجة أن أبي أخبرني بعد ذلك بسنين ، أن الناس اضطروا إلى أكل لحوم القطط ! ولم أر هذه القرية بعدها قط .
ولدت لأبوين عربيين من حضرموت ، فأبي ينتمي إلى بيت البحاح في الديس الشرقية ، بينما أمي إلى آل باشطح في غيل باوزير ، وكلتاهما تقعان في حضرموت الساحل ، أو ما كان يعرف حينذاك بالسلطنة القعيطية .
ذات يوم ، حملت الهجرة أبي ، في سفينة شراعية مقتفياً أجداده الحضارم الذين يهاجرون منذ الأزل ، فرست به في أفريقيا ، وقبلها بسنوات سبقه جدي لأمي فرست به سفينة مماثلة بين فخذين من أبنوس ، فيتزوج المرأة التي اصبحت جدتي ، وينجب منها تلك التي سيتزوج بها أبي ، والتي أصبحت أمي .
حملت السفن الحضارم إلى جاوه ، وإلى أفريقيا ، وإلى الأطلسي ، وإلى كل مكان في أشتات الدنيا فيه بيع وشراء ، وفيه نساء ، ومع التجارة نشروا الاسلام ، وأخذوا يتناسلون .
هكذا نسج القدر أولى خيوط حياتي ، وتلا أبي " قصيدته الحضرمية " فولدت له أمي قمرا اسماه محمد ا.

لا بد أن النصوص الأولى التي كتبتها،كانت بوحي من القصص والحكايات التي سمعتها من جدي وجدتي.

أو بتأثير من تلك الروايات الكثيرة التي قرأتها،ولا أظنها خارجة عن هذا النطاق خاصة في تلك المرحلة المبكرة من عمري.أما أعمالي اللاحقة فقد جاءت نتيجة الأجواء التي أرصدها في الحياة العادية. أشياء أسمعها هنا وهناك.وأشياء أرصدها والتقطها من واقع الحياة اليومية للناس.وأشياء أقرأها دون أن يكون لذلك السحر نهاية.

أن الكاتب،لا يمكنه أن يكون معزولا عن الناس.ولا عن الواقع ولا عن الزمن،رغم ما يبدو عليه من عزلة زمنية،ولكنها عزلة مؤقتة،في الزمن الذي يحتاجه للكتابة والتأمل فقط..

ولقد رصدت الحياة في الشارع،في الديس،وفي عدن،وفي صنعاء،وفي دمشق،وفي القاهرة،وفي موسكو وبرلين،وفي الإمارات،وحيثما قادتني قدماي،وساقتني الظروف.

وحين أشرع في الكتابة،فأنني استحضر الأمكنة بكل ما فيها من روائح وألوان،وكل ما فيها من تنويعات فنية،ومن حميمية،وغنى روحي.أو بمعنى آخر،إنني استحضر روح المكان.كما استحضر الأبطال والأشخاص الذين عرفتهم،ورصدت حياتهم،ومصائرهم.وقد أختار لهم أثناء الكتابة وخلق العمل الأدبي،مصائر جديدة تفرضها الوقائع والأحداث التي يتطلبها العمل الإبداعي.

إن الكاتب،أو المبدع ليس ناقلا،ولا مصوراً فوتوغرافياً،أنه خالق لعملية جديدة،قد يستغني فيها عن أشياء كثيرة،وقد يضيف أشياء أخرى،لم تحدث تعمق عملية الخلق والإبداع.كما أنه صاحب موقف،وصاحب رؤية.ولكنه لا يفرض قناعاته على الأشخاص،أو على أبطاله،بل يستوعبها ويقودها عبر الأحداث إلى مصائرها التي أرادها لهم،وكأنها المصائر أو الحيوات التي أرادوها بأنفسهم،لا نفسهم...

وما من قصه كتبتها،إلا وكان لها أصل في الواقع ،وقد يكون ذلك الأصل محدودا،أو قليلا.

وليس من الضروري أن تطابق القصة التي تكتبها الوقائع كما حدثت،وكما رأيتها،فلا بد للكاتب،أو للعمل الأدبي،أن يحل هذه المفصلة،ينبغي على المؤلف أن يكون قادراً أثناء عملية الإبداع أو التأليف على استحضار صور ووقائع وأحداث وتداعيات جديدة لم تحدث في الأصل،أو في الواقع. وهذا يعني أن يكون لديه سعة في الخيال،وأن تسعفه اللغة في كل حال.وأن يكون عنده في كل وقت مصادر عديدة يستطيع الاعتماد عليها.أي أن يكون واسع الثقافة،كثير القراءة والاطلاع...

ولقد كتبت قصصاً كثيرة،ولكني لم أنشر إلا القليل منها.وأنا لا أكتب إلا عندما يبلغ السيل الزبى،كما قال ذات مرة الكاتب والروائي السوداني الكبير الطيب صالح عن نفسه فخلال 35سنة منذ نشرت لي أول قصة في صحيفة "الثوري" في عام 1969م لم أصدر سوى مجموعة قصصية واحدة،هي التي صدرت لي في عام 1979بعنوان: مثل عيون العصافير على طرف النهر".وأعترف بأنني شحيح ومهمل في هذه الناحية.فكثير مما كتبته ونشرته في الصحف والروايات المختلفة اليمنية والخليجية والعربية لا أحتفظ بنسخ منها.وكثير من القصص المحفوظة التي لم تنشر بعد وعددها غير قليل،مازلت مترددا في نشرها وإصدارها في كتب.وهي تكفي لأن تكون في مجموعها عدة مجموعات قصصية،وقد صنفتها واخترت لها العناوين التالية:

-1حوريات الخوخة،-2 داخل الواقع خارج الزمن،-3 لا تقتلوني أنا آخر نخلة،-4 الدكاك،-5 الأشرعة السوداء،-6 بين البائع والمشتري يفتح الله .

والآن،أسمحوا لي،أن أعطيكم صورة ولو مختصرة عن المواضيع والأشخاص الذين يثيرون اهتمامي،ويحفزونني على الكتابة. في فترة ما كانت قضية الاغتراب،تستولي على اهتمامي أكثر من أية قضية أخرى أو موضوع آخر.وتدركون لماذا كان ذلك. تعرفون الآن من سيرة حياتي التي رويتها لكم،أو جزءا منها باختصار،إنني ابن لأبوين مهاجرين.

وولدت في بلاد غريبة بعيدة.وقد رأيت وعشت في طفولتي مدى معاناة أولئك المهاجرين وأولادهم.أنهم – حتى وإن أرادوا ذلك- لا يعدونهم جزءاً من ذلك المجتمع. وهم لا يصلون إلى النجاح دائماً،وان وصلوا فلا يكون ذلك بدون معوقات. باختصار لا أحد يقبلهم،أو يقبلونهم على مضض.أنهم على الدوام ضيوف غرباء.والناس تنظر إليهم على هذا الأساس.وهذا ما يجعل الحياة صعبة لهم ولأطفالهم المولودين في الغربة.وقد تكون المأساة أعمق إذا ولد هذا الطفل لأبوين إحداهما عربي والآخر من جنس آخر،فلنقل أفريقي،أو أسيوي- أندونسي.فهو يسمى(مولد)،وفي أمريكا اللاتينية يسمونه(خلاسي).. وتعرفون المثل الذي يقول "أقتل المولد قبل الحنش"،فالناس هنا وهناك يعتبرونه شخصا لا انتماء له لوطن.فلا هو ينتمي-حسب اعتقادهم-إلى وطن أمه حيث ولد،ولا إلى الوطن الذي قدم منه أبوه.ذلك هو الأمر المحزن الذي يلقي بظلاله النفسية الكئيبة على نفسية أولئك المولودين،أو الكليس" كما يسمونه في أثيوبيا...

هذا هو الوجه الأول لقضية الاغتراب.

هذا هو الوجه الثاني،أو الآخر فيمكن في الوقت ذاته. في عيون أولئك النسوة اللاتي يكتحلن بالحزن،ويسكنهن الحنين والشوق،وعذاب الانتظار.أما لأب،أو لزوج،أو لأخ،أو لابن،أو لقريب مهاجر في مكان ما عبر القارات.

هذا العذاب والشجن الذي لا يعبر عنه صراحة،لأنه ممنوع على المرأة بحكم قيود كثيرة،أن تبث شكواها.لهذا تتعذب في صمت،وتعجز عن البوح.وعن هذا الجانب كتبت بعض قصصي الأولى. ولعل "جذع النخلة" ، "إعلان" ، "ليلة عرس" ،أفضل مثل عن هذه المعاناة التي تستمر ليس لبعض الأعوام بل أحيانا إلى آخر القمر..كما أن قصة "الهجرة الأخيرة" خير مثال على قسوة الاغتراب ،وخيبات الأمل التي يقود بها المغتربون. لكن ماذا نقول في وطن طارد لابنائه؟!

وفي قصصي،أنا مهموم على الدوام بالإنسان ومصيره.وأنا منحاز إلى أولئك المسحوقين أو المهمشين في الحياة. والتقط أبطال أعمالي من بين هؤلاء الذين تطحنهم الظروف،ويقسو عليهم الزمن،ويظلمهم الإنسان ،وليس أقسى على النفس من ظلم الإنسان للإنسان.

لقد كتبت عن أطفال الشوارع،أولئك المشردين الذين يتسلقون السيارات الفارهة عند الإشارات الحمراء بخرق بالية،ووجود أكلها المرض،وأفترسها الجوع لكي يلتقطوا قوت يومهم. وكتبت عن بائعات الفل والكادي اللآتي يعطرن ليالينا الكالحة بلفحة بينما يتمزقن ألما،ويعتصرهن الفقر والفاقة. وكتبت عن الذين يسرقون قوت الفقراء ليزدادوا غنى ولا يحاسبهم أحد،وعندما يسرق الجائع لكي يسد رمقه تقطع يداه!

وكتبت عن الذين تداس براءتهم وأجسادهم على أرصفة الطرقات.

كتبت عن الثأر الذي يجر ثأراً،ويزهق أرواحا بريئة.والدم الذي يستقي الدم!وكتبت عن طالبات الجامعة،وعن الفتيات اللآتي "يتسولن" الحب خلف الشبابيك الموصدة.كما كتبت عن الخيانة،وقلة الوفاء..عن لحظات الفرح القليلة في حياتنا،وأزمنة الحزن المستوطنة فينا.وكتبت عن أعمال النظافة،تلك الفئة الأكثر تهميشاً في المجتمع.

لقد كتبت عن البحر،والصيادين ومعاناتهم الشديدة،وقسوة حياتهم،والظلم الواقع عليهم،من أولئك الذين يسرقون كدهم وعرقهم مثلما في قصتي "صواري التعب" . كما كتبت عن البحر وجمال الطبيعة وسكينة سكان الشواطئ وطيبة قلوبهم،والغزو الذي يتهددها،ويتهددهم من الطارئين الجدد،الذين يبحثون عن المتعة هرباً من جفاف وبرودة حياتهم،لكنهم سرعان ما يتحولون إلى مدمرين للبيئة ولوداعة حياة السكان الأصليين كما في قصة حوريات الخوفة" .

وللمعذبين في الأرض،وفي السجون والمعتقلات "الوطنية" على أيدي متوحشين أبعد ما يكونوا عن الإنسانية والضمير في قصصي نصيب،كما في قصة "إعدام أم كلثوم" ،وقصة "قبو للجميع" ،كماللذين يغتصبون النفس البشرية بوحشية لا نظير لها نصيبهم،كما في قصة "لا تقتلوني أنا آخر نخلة" .

وأنا دائماً نصير للمرأة في قصصي،ولحريتها المسؤولة بوصفها نصف المجتمع.ومنصف لها كما أنصفها الإسلام،وكما أوصى بها النبي محمد(ص)في خطبة الوداع عندما قال وكرر "أوصيكم بالنساء خيراً" ...

وخصصت بعض قصصي،عن جوانب من حياة بعض أصدقائي،كما في قصة "القدسية" ،وهي ملمح من حياة صديقي الجميل الكاتب والصحفي إحمد مفتاح-رحمه الله.أو كما في قصتي "قرم ياشيخ" ،و "المربوط" ،وهما عن صديقي الرائع وتوأم روحي الأديب والشاعر والصحافي أديب قاسم.أما قصتي "بكاء الموسيقى" ،فقد استوحيتها عن صديقي الطيب صالح الروشان،الذي أوحى لي ببعض قصصي التي كتبتها في صنعاء ونشرتها هناك مثل قصة "بريال وربع.. والأجر على الله" ،وقصة "بنات الأمر" .

وعلى سبيل المثال،فإنني عندما كتبت قصتي "مانع اليماني" التي نشرتها في مجموعتي القصصية الأولى "مثل عيون العصافير على طرف النهر" الصادرة عام1979م،فقد استوحيتها من شخصية حقيقة كانت تعيش في قريتنا الديس الشرقية" التي صارت الآن مدينة كبيرة.واسمه السيد جعفر" وقد كان الرجل ظاهرة غريبة.فمن ناحية فهو ينتمي إلى السادة" الذين لهم في حضرموت مكانة دينية واجتماعية مرموقة.ومن ناحية أخرى فقد كان الرجل بالمفهوم العلمي والطبي مريضاً يندرج في فئة ذوي الاحتياجات الخاصة...

كان كلامه همهمة،وملابسه مهلهلة،ولعابه يسيل،ويسير في طرقات وأزقة الديس المترية،يتبعه الأطفال كما يتبع الأطفال "بهلول" كل قرية. وكان بوسعه ولوج أي بيت دون أن يصده أحد،وحتى النسوة لم يكن يستحينه،فقد كان الجميع يعتبره رجلا مباركا صاحب كرامات.وكل هذا قد يبدو أمراً طبيعياً في مجتمع قروي يؤمن بالمعجزات.وكانت قصص كثيرة تحاك عن السيد جعفر" ،تعمق في نفوس العامة شخصيته الأسطورية.ومن ذلك أن أكثر من شخص كان يزعم أنه رآه في بلدة بعيدة في وقت محدود بعينه.فيما يحلف آخرون بانهم رأوه في نفس الوقت في بلدة أخرى،في الوقت الذي لم يغادر فيه الرجل الديس...وكان كل هذا يضفي هالة اسطورية على "السيد جعفر" .وهذا ما جعلني أهتم به،وأجعله بطلاً لقصتي المشار إليها.ولكن بتوظيف جديد،حيث مزجت الخاص بالعام،هنالم يعد "السيد جعفر،أو مانع اليماني كما أصبح اسمه في القصة ذلك البهلول،بل بطلا تاريخيا اسطورياً قادراً على إنقاذ البلدة والناس من براثن الأعداء المتربصين...ولكنني استفدت من بعض ما كان يحاك حوله من قدرته على الانتقال السريع،والظهور في أكثر من مكان في ذات الوقت،فجعلت أجزاء من جسمه تطير في الهواء،وتنتقل من مكان إلى آخر بدون استخدام اية وسيله نقل أو مواصلات..

وعندما قرأ الزميل الشاعر محمد حسين هيثم،وهو قارئ بامتياز،هذه القصة عدها تندرج في إطار الواقعية السحرية التي يعد كتاب أمريكا اللاتينية أفضل من يكتبها،وخاصة الكاتب العالمي الكولومبي "غبريال غارسيا ماركيز" .وفي الزمن الذي نشرت فيه هذه القصة لم يكن "ماركيز" قد ترجم إلى العربية.

وفي قصصي نفحة شعرية. وعندما صدرت مجموعتي القصصية الأولى" مثل عيون العصافير على طرف النهر ،احتفى بها الشاعر والناقد اليمني الكبير عبدالعزيز المقالح،وكان مما قاله "لو لم يكن البحاح قاصا لأصبح شاعراً" ..وهذا مما أعتز به.

وثمة من شبهني بالقاص العربي السوري زكريا تامر،كما فعل صديقي القاص والمبدع ميفع عبدالرحمن الذي يذكرني دائما برأيه هذا في إبداعي كل ما التقينا..وهو رأي له قيمته إذ يأتي من قاص مبدع لطالما أعجبت بقصصه وجرأته..

وكتبت القصة القصيرة،والقصة القصيرة جداً،والحكاية،والأقصوصة.وحاولت كتابة الرواية ونشرت الفصل الأول من روايتي "الشحاري" في صحيفة "كفاح الشعب" الصادرة في صنعاء،كما لي محاولات في المسرح.

أما تجربتي في الصحافة،التي يطلق عليها البعض،مهنة البحث عن المتاعب" ..ويطلق عليها آخرون: "السلطة الرابعة" ،ويضفي عليها البعض الثالث بعض الجلال فيسمونها "صاحبة الجلالة" ،فقصة أخرى تتشابك،وتتقاطع،مع تجربتي القصصية،أعطتني،وأخذت مني. وسلخت مني بعض سنين عمري الجميل..

..لكن هذه قصة أخرى،وتجربة ثانية قد أتحدث عنها في مناسبة أخرى..وهي تجربة غنية بكل المقاييس،ليس من حيث كونها تجربة ذاتية فحسب،بل لأنني كنت خلالها،شاهداً على عصر،بكل ما حفل به من تحولات عميقة،من ايجابيات،ومن سلبيات،من انتصارات،ومن انتكاسات ليس على الصعيد اليمني وحده،بل على الصعيدين العربي والعالمي أيضا.

رأيت وعشت في طفولتي مدى معاناة أوليك المهاجرين وأولادهم

كتبت عن البحر والصيادين ومعاناتهم الشديدة وقسوة حياتهم والظلم الواقع عليهم ،من أولئك الذين يسرقون كدهم وعرقهم

عند ما صدرت مجموعتي القصصية الأولى (مثل عيون العصافير على طرف النهر) احتفى بها الشاعر والناقد اليمني الكبير عبد العزيز المقالح ، وكان مما قاله (لو لم يكن البحاح قاصا لأصبح شاعرا)

ماركس — عبد العزيز المقالح — محمد حسين هيثم

المكلا

المكلا